الإسلام والحكم

تحرر الأمة من الأغلال مرتبط بتصحيح العقيدة

لا شرعية لحكم الظالم أو الفاسق

مجدى أحمد حسين

المركز العربى للدراسات

عنوان المؤلف: ٣٦ شارع الروضة - المنيل- القاهرة
تليفون وفاكس: ٣٦٤٤٠٥٥

بريد إلكتروني:

magdyhussien@gawab.com

* * *

الناشر: المركز العربي للدراسات

العنوان : ٢ شارع سمير سيد أحمد من شارع المنيل ـ محطة الباشا ـ القاهرة
تليفون: ٥٣٢٧٨٠٥ ـ فاكس: ٣٦٤٤٦٧٨

مجلس الأمناء

أ. محفوظ عزام ـ أ. مجدي أحمد حسين ـ أ.د. أحمد المهدي عبد الحليم ـ أ.د. صلاح عبد المتعال ـ أ. محمد أبو الفتوح ـ أ.د. يحيى هاشم حسن فرغل ـ أ.د. مجدي قرقر ـ أ. محمد السخاوي ـ أ. كمال السعيد حبيب ـ أ.د. عبد الله حسين.

مجلس الإدارة

د. نجلاء القليوبي ـ د. أحمد الخولي ـ أ. عمر عزام

مدير المركز

عبد الحميد بركات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقاومة الطغيان ممكنة، واحراز نقاط لصالح الشعب أمر واقعى، والتغيير حلم ليس بعد المنال إذا أرادت الأمة أن تتحرر من الاستبداد.

القضية الكبرى هى قضية رأس السلطة، فى عام انتهاء الدورة الحالية للرئاسة فلقد انتهى عهد الإصلاحات التدريجية البطيئة، وتكلست السلطة التنفيذية إلى حد الموات، والأحوال فى البلاد لا تتحمل المعالجات البطيئة.

* * *

والأمة لن تتحرر من الأغلال إلا إذا علمت علم اليقين أن شئون الحكم والسياسة هى من صميم العقيدة الإسلامية، وأن إصلاح أحوال البلاد والعباد مسألة إيمانية بل ذروة التعبير عن الإيمان بالله.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج:٤١].

الموقف الشرعى الإسلامى من الحاكم ونظام الحكم مسألة متجددة، تناولها الفقه والعديد من الفقهاء عبر التاريخ الإسلامى استنادا إلى الأسس الدستورية الواردة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ومرحلة الخلفاء الراشدين. ورغم أن الاتفاق هو السمة الواضحة لهذه المرجعيات فى القضايا الأساسية إلا أن البعض لا يزال يتحدث عن أمور مرجوحة وهو ما يثير جدلا من المفترض أن الأمة تجاوزته، كما يجرى الخلط بين مستويات المرجعية فيشار أحيانا إلى فتوى ما دون تحديد الزمان والمكان، مع اغفال نص قرآنى صريح فى ذات الموضوع مع أنه لا اجتهاد مع النص .

قضية الحكم فى الإسلام إيمانية

مسألة الحكم فى الإسلام مسألة إيمانية عقيدية، لا تدخل فى دروب السياسة وفقا للتعريف التقليدى العلمانى للسياسة. فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بعبادته

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].
كمهمة وحيدة، أى على وجه الحصر، وهو ما يعنى أن العبادة (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه) ابن تيمية.

وان العبادة (قضية اتباع لا مجرد شعائر) سيد قطب.

وقد نص القرآن الكريم على هذا المعنى الجوهرى بصور شتى فى آيات شتى كالقول:

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] .

وأمرنا الله سبحانه وتعالى بإقامة الدين، وفصل ذلك وفسر فى آيات التمكين وآيات الأحكام التى لا يمكن أن تتحقق إلا فى ظل دولة إسلامية (الأحكام التى تضبط وتنظم حالات الحرب والسلام والزكاة والعقود والحدود وشتى التشريعات).

وبالتالى فإن كل مسلم فى كل عصر وآوان مطالب

بالسعى والجهاد من أجل إقامة الدولة الإسلامية. والجهاد ـ بالكلمة على الأقل ـ ضد الدولة التى لا تحكم بما أنزل الله، وان يكون ذلك على نحو صريح لا التفاف فيه، اللهم إلا فى حالات الاستضعاف الاستثنائية والتى لا نراها متحققة فى عالمنا اليوم فى معظم المجتمعات الإسلامية. والمقصود بحالات الاستضعاف الاستثنائية، العدد الضئيل للمؤمنين والمتناهى فى الضآلة، كحالة أهل الكهف، أو كحالة المؤمنين فى السنوات الثلاث الأولى للدعوة الإسلامية والتى كانت سرية، والتى بلغ عدد المؤمنين فى نهايتها قرابة الأربعين (وفى رواية أخرى ستين)، أو كحالة المؤمنين فى الدول الشيوعية إبان ذروة جبروتها وفى ظل ضآلة عددهم فى الاتحاد السوفيتى أو بلغاريا أو يوغسلافيا.

وليس المقصود بالاستضعاف هو نقص العدة والعتاد والامكانيات المادية، فكل أصحاب دعوة أو رسالة

خارج مواقع السلطة لابد أن يكونوا ناقصى العدة والعتاد، وأن قوتهم الرئيسية تكمن فى انتشارهم العددى النسبى، أى تجاوز الندرة المرشحة أو المهددة بالإبادة الكلية، مع الصلابة العقدية التى تجعل قوتهم مضاعفة عشرات المرات عن قوة الخصوم. أى أن الانتشار العددى النسبى لا يعنى بالضرورة تجاوز الفئة المؤمنة الصلبة نسبة الـ ٥٠٪ من عدد السكان، ذلك أن لحظة فتح مكة وهى أشبه بعاصمة جزيرة العرب تم قبل الحصول على هذه الأغلبية البسيطة، ثم تحققت أغلبية ساحقة تشبه الإجماع بعد هذا الفتح [سورة النصر].

إذن فإن إقامة الدين هى الهدف الأسمى والأعلى فى الدنيا وهو هدف معلن لا يتم الوصول إليه بالتآمر السرى أو بالمؤامرات الصغرى، ولكن من خلال الدعوة الصريحة التى تحاصر الطاغوت وتنتزع شرعيته، ولأنها

قضية إيمانية فلا يجوز لجيل أن يتركها لجيل تال، بل عليه أن يعمل عليها (أى إقامة الدين أى التمكين) بالأخذ بالأسباب سائلا الله التوفيق، دون أن يقع فى شرك الساسة العلمانيين الذين يقيسون الأمور وموازين القوى بصورة تعتمد على المؤشرات المادية الظاهرة فحسب، وبالتالى يجب ألا نفترض استحالة النصر فى كل جيل.

ونرى أنه يجب توخى النصر والسعى إليه دون خجل أو مواربة، ودون الإدعاء أن الهزيمة والنصر بالنسبة إلينا سواء، لأن ذلك يخالف الفطرة التى خلقنا الله عليها، ويخالف نصوص القرآن بطبيعة الحال: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾[محمد:٧]، ﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[الأنفال:٧]،﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر:٥١]، ﴿وَكَانَ

حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]،﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف:١٣]. ولم يرتبط النصر فى القرآن بالكثرة أبدا: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥] ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[التوبة:٢٥].

ويستند البعض أحيانا إلى قصة سيدنا نوح عليه السلام لتبيان أن النصر ليس سهلا بالضرورة وقد يستغرق ألف عام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

والحقيقة أن قصة سيدنا نوح تسير فى نفس إطار السنن العامة فى القرآن الكريم. ان رسالة كل نبى ورسول أن تسود دعوته، فهو لايدعو ولا يبشر بهزيمة نفسه أو رسالته..

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

المهم أن قصة سيدنا نوح هى قصة نصر لا قصة هزيمة، وإن أخذ ذلك شكل معجزة التدخل الإلهى بالطوفان الشامل الذى نجا منه المؤمنون، ثم بدأوا حياة جديدة بعد الطوفان ليبنوا مجتمعا إيمانيا محكوما بشرع الله. أما استطالة الزمن فى الدعوة، فهو يشير إلى أنه سنة الله فى خلقه، وأن الطريق ليس سهلا أو مفروشا بالورود لأصحاب الرسالات حتى وإن كانوا مرسلين من الله. وأن المعاندين والمستكبرين من بنى البشر سيتصدون لهذه الدعوات وسيستغشون ثيابهم. فهذه سنة دائمة حيث يقول الرسول أى رسول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤] وقرب النصر لا معنى له إلا أن يكون فى نفس الجيل. لأن «القرب» مفهوم زمنى دنيوى وهو ظرف زماز

مستخدم إلى مخاطبين محددين وليس على طريقة أن اليوم عند الله بألف سنة مما تعدون، فهذه أمور غيبية.

أما إذا كان المقصود كما يميل المفسرون أن سيدنا نوح عاش بالفعل ٩٥٠ عاما، بل ان هذه كانت سنوات الدعوة فقط، فإن ذلك لا يغير من المعنى شيئا، فإذا كانت الأعمار فى سالف العصر والآوان بهذا الطول (فلم ينبئنا الله أن طول العمر كانت معجزة لنوح) إذن فإن الأمور نسبية، ولقد تم النصر فى نفس الجيل!! نفس القائد «الرسول» ونفس جماعة المؤمنين هى التى نصرها الله فى النهاية وأقامت دولتها ومجتمعها بعد الطوفان.

إن السعى للتمكين لدين الله فريضة دائمة فى كل الأجيال، وما النصر إلا من عند الله، بمعنى أننا إذا أخذنا بالحسابات المادية المحسوسة لأصابنا اليأس من التغيير، فمن كان يتصور أن بضع مظاهرات سلمية ستؤدى فى النهاية إلى خلع عرش شاه إيران الذى تحميه دولة

بيروقراطية عريضة ومليون جندى على الأقل وأغلب الدول العظمى والاقليمية!!.

لا يصح للدعاة أن يقولوا إننا نعمل وليس يهمنا النجاح أو الفشل، النصر أو الهزيمة، فهذه فى حد ذاتها روح انهزامية لا تبشر ولا تساعد على النصر الذى وعدنا الله. وانما الأصح أن نقول إننا نعمل من أجل النصر، وهذا لن يتم إلا بتوفيق الله، وإذا نحن فشلنا لأى سبب من الأسباب فحسبنا أن نيتنا كانت خالصة لله.

إن الهزائم كانت فى الأغلب الأعم من صنع البشر وليست إجبارية ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]..

وإذا كانت السيرة النبوية هى النموذج الذى نحاكيه ونأخذ منه العبر والقوانين بعد القرآن الكريم.. سنرى أن هزيمة أحد لها أسباب موضوعية ظاهرة وواضحة

ويتحمل المسؤلية فريق من معسكر المؤمنين، وكذلك هزيمة حنين التى تم تداركها.

وفى حياتنا المعاصرة نجد احتلال فلسطين وهزيمة ١٩٦٧، حتى احتلال لبنان والعراق على سبيل المثال ترتبط بالأساس بتقصير المؤمنين. وعلى الحركات الإسلامية أن تقيم عملها بنفس الأسلوب ولاتنسب هزائمها لأمور غيبية، أو لمعانى مجردة كالابتلاءات.. فالمحن والابتلاءات شىء، والهزيمة فى مرحلة تاريخية كاملة شىء آخر.

قضية الحكم فى القرآن الكريم

قبل أن نخوض فى تراثنا الفقهى حول قضية الحكم والسياسة فى الإسلام من الأصوب دائما أن نبدأ بالقرآن الكريم ونحن نقف أساسا عند الآيات المتعلقة بشرعية الحكم ومواصفاته وبالأخص حول قضية البيعة، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وعدالة الحكم كقضية إيمانية.

﴿وإذ ابْتَلَىٰ إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤].

أى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن امتحن إبراهيم (ابتلاه) فاجتاز الامتحان، اختاره بعد ذلك ليكون قدوة يقتدى بها الناس، وعندما دعا إبراهيم شأنه شأن أى والد يبتغى الخير لأولاده أفهمه الله سبحانه وتعالى أنه سيكون من نسله الصالح والطالح والخير والشر وأن الله لا يشمل برحمته وبركاته «الظالمين» واتخذ العلماء من هذه الآية الأساس والقاعدة فى أن الإمام (الحاكم) يجب أن يكون عادلا وأن الظلم يسقط عن أى حاكم شرعية وجوده [١].

وإماما أى يتخذونه قدوة ويقودهم إلى الله ويقدمهم إلى الخير ويكونون له تبعا وتكون له فيهم قيادة. والإمامة لمن يستحقها بالعمل والشعور، وبالصلاح

والإيمان، ليست وشيجة لحم ودم وإنما هى وشيجة دين وعقيدة. أما الظلم فهو أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغى، والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة، وكل معنى من معانى الإمامة والقيادة، فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة فى أية صورة من صورها. ومن ظلم ـ أى لون من الظلم ـ فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها، بكل معنى من معانيها.

﴿لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ إذن تعنى تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم بما ظلموا وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم ودعواهم الإسلام، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله(٢).

ان المانع من منصب الإمامة مطلقا هو الظلم، وذكر

الله ذلك لتنفير سائر الناس من الظالمين وترغيبهم عن الاقتداء بهم، فإن الناس قد اعتادوا الاقتداء بالرؤساء والملوك الظالمين لأنفسهم ولغيرهم بالخروج عن الشريعة إلا ما يوافق أهواءهم، ويحرفون أو يؤولون الأحكام لتطابق شهواتهم. لذا أخذ الفقهاء من هذه الآية حكما أصوليا وهو أن الظالم لا يجوز أن يولى منصب الإمامة العظمى، واشترطوا لصحة الخلافة فيما اشترطوا العلم والعدل.

إن الحكام الذين ظلموا الأئمة الأربعة (أبو حنيفة ـ مالك ـ الشافعي ـ ابن حنبل) كانوا أقل توغلا واسرافا في الظلم من أكثر الملوك والأمراء المتأخرين. ان المتأخرين من الحكام لا يعرفون من الشريعة أكثر مما يعرفه السوقة ويعملون بخلاف ما يعلمون بل يشرعون للناس أحكاما جديدة يأخذونها من قوانين لأمم تخالف الشريعة ولا توافق مصلحة الأمة ويلزمون عمالهم وقضاتهم الحكم بها باسمهم لا باسم الله تعالى [٣].

وقال آخرون معنى العهد عهد الإمامة، ومعناه ألا يكون الإمام ظالما[٤].

وقى قول آخر: انى جاعلك اماما للناس تؤمهم فى دينهم وتفصل بينهم فى دنياهم ولا ينال عهدى بالإمامة الظالمين الذين ظلموا أنفسهم لأن الإمام مفروض أن يقوم بحراسة الدين وأهله والقيام على شئون الرعية ومنع الظلم، فإذا كان ظالما لنفسه فكيف يدفع الظلم عن غيره وهذا هو حكم القرآن فى الإمام وماشرطه فيه[٥].

وقد تكلم بعض المفسرين فى ضوء هذه الآية الكريمة عن الولاية وإمامة الناس فقال بعضهم: إن هذه الآية تدل على أنه لا يجوز ولاية ظالم، ولا يصح أن يكون إماما، وأنه إذا ولى ظالم لا تجوز طاعته، أو على الأقل فى ظلمه، وقال آخرون: تجب طاعته فى الطاعة وتجب مخالفته فى المعصية، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ويستمر فى ولايته، ويسعى فى تغييره وان الاتفاق على أنه لا يجوز تولية الجائر[٦].

وجاء فى التفسير أيضا: لا يكون لى إمام ظالم ـ لا أجعل إماما ظالما يقتضى به ـ ليس للظالمين عهد، وإن عاهدت ظالما أنقضه ـ لا طاعة إلا فى المعروف ـ الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ولا شاهدا ولا راويا[٧].

واستدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذى أمر النبى ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله على ما تقدم من القول فيه. فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليس له بأهل[٨].

* * *

ونخلص من كل ما سبق أن النص القرآنى يتسم بالعمومية والإحكام كنص دستورى لتنظيم حياة البشر عبر الأزمنة والأمكنة. فالإمامة هنا تعنى القدوة والقيادة الشاملة، نعم هى تعنى النبوة ولكن القرآن ليس كتابا

لمرحلة النبوة، بل هو الكتاب الذى اكتملت آياته قبل أيام قليلة من رحيل آخر المرسلين عن عالمنا محمد ﷺ، وأتباع النبوة وعلى رأسهم العلماء هم ورثة الأنبياء وتصدق عليهم القوانين العامة للقيادة، كما تصدق على الأنبياء باعتبارهم القادة القدوة والمثل الأعلى، ولا يختلفوا عنهم إلا بانتفاء العصمة وتلقى الوحى، وبالتالى كل القوانين الاجتماعية التى حكمت علاقة الأنبياء والمرسلين بمجتمعاتهم هى التى تظل سارية حتى يوم الدين، والقرآن ككتاب هداية يعلمنا أسس العمران البشرى وفقا للمشيئة الإلهية، أى حسن اعمار الأرض، وجعل اعمار الأرض تعبدا لله سبحانه وتعالى. بل ان الآيات التالية فى سورة البقرة والتى تتحدث عن بناء الكعبة وتطهيرها للعاكفين والركع السجود ودعوة إبراهيم ربه ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة:١٢٦] وكأنه صار المتصرف فى هذه البقعة من الأرض بعد هجر أرض الملوك فى العراق

والشام ومصر، وكأن سيدنا إبراهيم قد أسس مجتمعا إيمانيا فى جزيرة العرب هو إمامه، وإن لم يذكر القرآن ذلك صراحة، وجاء فى البخارى أن إبراهيم عندما ذهب إلى مكة مع هاجر وابنه إسماعيل لم يكن بها أحد وليس بها ماء (قبل تفجر ماء زمزم) وهذا ما أكده القرآن الكريم ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[إبراهيم:٣٧].

وأن الناس تحلقت حول مكة بعد ذلك ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:٣٧] ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧].

ثم ثبت بعد ذلك بشكل لا يحتمل أى تأويل أن الذرية الصالحة لسيدنا إبراهيم قد تولت الإمامة بمعناها الشامل وليس بمجرد تقديم القدوة والموعظة الحسنة بل بتصريف شئون الدنيا بالعدل كما فى قصة سيدنا

يوسف ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ [يوسف:٢١] وهو ابن يعقوب ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧] وأيضا داود وسليمان.

إن الله سبحانه وتعالى منذ الأزل لم ينزل الدين إلا ليحكم حياة البشر فى كل شىء وعلى رأس ذلك القوانين التى تسير وتنظم المجتمعات والتى يتولاها أولو الأمر من الحكام.

ونحسب أن الإسلام ببعثة محمد ﷺ كان متمما ومكملا ومهيمنا على ما سبقه من شرائع، ولم يقدم جديدا من حيث المبدأ فى علاقة الإيمان بالدولة أو الإمامة أو القيادة .

فالأصل فى العقيدة أن الإمامة وإن استند أصلها إلى عقيدة التوحيد إلا أنها مأمورة ومطالبة بتنظيم شئون المجتمع بأسره وفق هذه العقيدة وما يترتب عليها من

عبـادات وأخلاقـيات ومعـاملات، ومـراجعـة القصص القرآنى تـوضح هذه الأبعاد كلهـا، حيث تندمج مـسألة التوحيد مع إصـلاح شئون المجتمعـات فى حزمة واحدة مترابطة على سبيل التزامن لا التتابع.

وبالتالى فإن القول بصدق العـبودية لله بينما ينصرف المؤمنون عن أهم شئـون تنظيم الحياة الدنيا، وتركـها فى يد من لا يقـيم لشرع الله وزنا، هى معـادلة غيـر مقـبولة على أى وجه من الوجوه إذ أن الفصـل بين شئون الدنيا والدين، يعنى أن العـبودية لله ليـست حقيـقيـة أو ليست خالصة وذلك لتـغليب الخوف من الظالمين على الخوف من الله، وفى نـفس الوقت فـإن هذا الموقـف يؤدى إلى الإهدار العملى لكل أوامـر الله وتشريعاته، وكـأنها زينة فى الكتب دون الواقع، لذلك وصف الله حـاملى كتـابه دون الالتـزام به عمليـا بمنتـهى القسـوة (كمـثل الحمـار يحمل أسفارا)!.

ان الدين الحق لا يعمر المساجد والمعابد بينما الحياة أشبه بالقفر، جرداء من قيم العدالة والشورى والحب والأخوة والتكافل والتسامح. إن المعاملات الشخصية بين الأفراد مهما حسنت النوايا فلن تكون فى أفضل أحوالها فى مجتمع تحكمه قيم الجور والظلم والاستعباد والقهر السياسى والاجتماعى.

إن موالاة حكام المسلمين لأعداء الله هى أكثر الصور المعاصرة فجاجة لانتهاك حقوق الله، ولتدمير أصل ومعنى وجود مجتمع مسلم، عندما يلتحق حكامه بأعداء الدين ويتلقون منهم المال والسلاح والدعم المادى والمعنوى، ويشاركون فى مخططاتهم ضد المسلمين تحت شعار محاربة الإرهاب، ونزع أسلحة الدمار الشامل للمسلمين، والتطبيع مع العدو الصهيونى، والترويج لقيم السلام فى وقت يشن الأعداء أعتى الحروب على المسلمين، بل ويقومون

بتدريب قوات الشرطة العميلة فى العراق لمساندة الإحتلال الأمريكى، ويجعلون من بلادنا مستقرا وممرا لقوات الأعداء. إن هذا يجعل الإدعاء بالإيمان بالله والإسلام أقرب إلى النفاق منه إلى الحقيقة.

والحاكم الظالم ليس هو الحاكم المستبد الذى يقمع الرأى المعارض فحسب، فهذا نوع من الظلم قد يقع فيه الحاكم المسلم، وهذا ما يدور حوله كلام الفقهاء فيما يتعلق بالشروط الصعبة التى يضعوها للخروج عليه. ولكن الحاكم الظالم قد يكون هو الذى يشرك بالله (إن الشرك لظلم عظيم) والشرك ليس بعبادة الوثن والصنم فحسب، إنما قد يكون بموالاة الكفار والمشركين المحاربين كما هو حال معظم حكام العرب والمسلمين.

إذن فإن الإمامة العادلة هى جزء لا يتجزأ من العقيدة، بل هى جزء حاكم وأساسى، وتقع فى أولوية جهاد المجاهدين، كما كان فتح مكة هو الهدف الأساسى لجهاد الرسول عليه الصلاة والسلام للتمكين

لدين الله فى الأرض. نعم ان الهدف الأول والأخير وإن شئت الوحيد: نشر دعوة الإيمان بالله والتوحيد ولكن كيف؟! وفقا للسنن التى وضعها الله والتى تحكم حياة المجتمعات، وعلى رأسها حيازة المؤمنين لسلطة الدولة[٩] . إذن لا يمكن إقامة الدين بصورة صحيحة إلا بإمامة عادلة، وعلى المؤمنين فى كل جيل السعى والجهاد للتمكين لهذه الإمامة، ومبايعتها وإن كانت فى المعارضة كما بويع الرسول عليه الصلاة والسلام قبل إقامة دولة المدينة، لأن من شأن هذه المبايعة تمهيد الطريق للتمكين، ولكن هذه الإمامة العادلة بدورها ـ وهى ليست بالضرورة أن تكون فردا فذا فقد تكون جماعة أو تنظيم ـ لا تستحق هذا الاسم إذا لم تكن تجاهد الظالمين وتسعى لإزاحتهم عن سدة الحكم، وتمارس فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دون أن تخاف فى الحق لومة لائم.

* * *

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

يبين الله سبحانه وتعالى أنه بعث النبيين ومعهم الكتاب ليكون المرجعية الحق فى مجمل حياتهم وحياة البشر، والكتاب فى الأصل هو كتاب واحد تعدلت بعض شرائعه دون جوهره حتى القرآن الكريم الطبعة النهائية الصالحة للبشر حتى نهاية الدنيا.. وسيكون من قبيل السفه أن نتصور أو تنصرف عقولنا عن هذه المرجعية إلى قانون الأحوال الشخصية أو بعض الأخلاقيات الفردية أو بعض الشعائر دون التشريعات الكلية التى تحكم تنظيم المجتمع ككل. وقد برهن التاريخ أن شئون الحكم تكون العامل الحاكم فى صلاح

المجتمعات أو فسادها، فأهل الحكم هم الذين يقرون التشريعات المنظمة لحياة المجتمع، ويشفعون ذلك بالاجراءات التنفيذية، والقضائية، فكيف يمكن الاحتكام لكتاب الله، وهو وراء ظهور هؤلاء الحكام ثم يعد المجتمع إسلاميا؟!.

ونحن فى مصر على سبيل المثال أسقطنا هذه المرجعية الإسلامية رسميا منذ الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ أى منذ ١٢٢ عاما ولا يمكن أن نقيم الدين حقا وصدقا إلا بالعودة إلى هذه المرجعية وهذا لن يتم إلا بحاكم مسلم وحكام مسلمين بهذا المعنى، أى حكام يحلوا الخلافات بين البشر على أساس الكتاب، والحاكم الذى لا يلتزم بذلك يتعين اسقاط المشروعية عنه والسعى إلى تغييره، وأن يكون ذلك هو الشغل الشاغل للمؤمنين، وأن تكون هذه عبادتهم المستمرة لله سبحانه وتعالى. فلا توجد فى الدين مرحلة للصلاة والصوم وغيرهما من شعائر، ومرحلة لإقامة الدين

بصورة شاملة فى المجتمع، وليس معنى ذلك الثورة الدائمة أو الخروج المستمر على الحاكم دون تهيئة عملية، ولكن الإعلان الدائم عن هذا الهدف والسعى له بالتدبير والإعداد، وجزء أساسى من هذا الإعداد هو الإعلان عن هذا الهدف لحشد جموع المؤمنين حوله وتعبئة قواهم وحركتهم، وهذا ما حدث فى المرحلة المكية من سيرة الرسول عليه الصلاة السلام عقب فترة الدعوة السرية التى لم تتجاوز السنوات الثلاث، ولم تكن هذه المرحلة السرية ضرورية إلا بسبب منطقى بسيط للغاية، هو تأسيس نواة مجتمع المؤمنين، وهى نواة صغرى لم تصل عند الجهر بالدعوة حتى إلى ١٪ من عدد سكان مكة، وهو أمر متوفر الآن بأكثر من ذلك بكثير فى مصر وكثير من البلاد العربية والإسلامية.

وهناك سبب منطقى آخر، أن القرآن الذى ينزل على الرسول عليه الصلاة والسلام كان ينزل منجما أى متقطعا وعلى دفعات، فكان لابد من نزول جزء مقدر

منه، وأن تستوعبه وتتمثله هذه النواة المؤمنة وتتربى عليه، قبل الجهر بالدعوة بعد ٣ سنوات، وهو الجهر الذى بدأ رغم عدم اكتمال نزول القرآن الكريم.

أحيانا يخلط الناس بين ثلاث مراحل أو مواقف فيضعون علامة التساوى بين أمور غير متساوية أو غير متطابقة.

١ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٢ـ الموقف من شرعية الحاكم.

٣ـ الخروج أو الثورة عليه للإطاحة به.

أما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو فريضة دائمة ومكون رئيسى للمجتمع المسلم وهى كما شبهتها من قبل بالشهيق والزفير، هى فريضة تمارس ٢٤ ساعة فى اليوم وطول العمر فى سن التكليف وفى كل زمان ومكان، وهى تصل إلى أقرب صور كمالها فى المجتمع المسلم ذاته عندما يحكم المرجعية الإسلامية فى كل شئونه.

أما الموقف من شرعية الحاكم، وهل يستحق الخلع أم لا فهنا دار الفقه الإسلامى عموما حول مسألة الفسق أو الظلم، وكثيرا ما يضرب مثل بقيام الحاكم بشرب الخمر! ذلك أن الفقهاء فى زمن سيادة المرجعية الإسلامية لم يناقشوا أصلا مسألة أن يكون الحاكم كافرا فهذا أمر لم يكن واردا على الإطلاق، أو أن يعلن عدم التزامه بالمشروعية الإسلامية، أو يعلن مرجعية أخرى غير الإسلام، أو يتحالف مع الدولة البيزنطية أو يحصل منها على معونات أو سلاح، أو يجعل أرضه ممرا أو مستقرا لقواتها، أو يقوم بمناورات مشتركة معها أو يقيم منطقة للتجارة الحرة أو الشراكة معها دون المؤمنين.

الملفت للانتباه أن البعض ينقل فتاوى من عصر إلى عصر وهو أمر غير مقبول شرعا فالفتوى تقدر بقدرها وفى زمانها ومكانها.. فالقول باحتمال الحاكم الظالم أو الفاسق أو الفاجر كان لأنه يقوم بمهمات عليا أو بتعبيرات العصر: يلتزم بالمصالح العليا للأمة، أو

مانسميه الآن «الأمن القومى»! كان يقوم بمعظم الواجبات التى حددها مثلا الماوردى فى الأحكام السلطانية: حفظ الدين ـ تنفيذ الأحكام ـ حماية البيضة ـ إقامة الحدود ـ تحصين الثغور ـ جهاد من عاند الإسلام ـ جباية الفئ والصدقات ـ.. إلخ.

لم يقل فقيه من الثقاة عبر التاريخ بمشروعية حاكم يحالف الامبراطوريات المحاربة للمسلمين!! بل لقد كان من أهم أسباب سقوط الدول والدويلات الإسلامية هى مسألة موالاة الأعداء، وكانت القيادة تعقد دائما محليا وعلى مستوى العالم الإسلامى للأكثر تصديا لأعداء الإسلام المحاربين.

لم يقل فقيه من الثقاة عبر التاريخ بطاعة حاكم ألغى مرجعية الشريعة الإسلامية!! وليس المقصود هو الفهم الشائع الخاطئ للشريعة باعتبارها قوانين الحدود فحسب فهذه ليست إلا القانون الجنائى الإسلامى، إن الشريعة الإسلامية هى التى تضع أسس الدولة الإسلامية

واستقلالها و تتضمن مبادئ الحكم والحرب والسلم والاقتصاد وإقامة العدل فى كل ذلك.

والقول بعدم مشروعية حاكم أو نظام لا يعنى الثورة الفورية عليه، فالثورة (أو الخروج) هى مجرد مسألة قدرة وحسابات سياسية وعسكرية. فى الأغلب الأعم تكون هناك مسافة زمنية تطول أو تقصر بين الإعلان عن عدم مشروعية الحكم وبين لحظة الخروج عليه . بل أن الخروج لن يتم أصلا بدون هذ التمهيد الشرعى ولذلك تعلمنا من الطغاة ـ الذين يعرفون جيدا مصالحهم الدنيوية وكيف يحافظون عليها ـ حساسيتهم الشديدة من الرأى والفكر. ورأينا عبر التاريخ كيف قتل الطغاة الملايين من أصحاب الفكر والعقائد الذين لم يحملوا سلاحا ولم ينظموا انتفاضات مسلحة. وكان انزعاج أئمة الكفر فى قريش من دعوة محمد ﷺ أنه يقوض مشروعيتهم، رغم أنه لم يدع فى البداية للخروج (الثورة) عليهم، فقد فهموا جيدا أن تقويض مشروعيتهم هو بداية الطريق للخروج عليهم وتقويض

سلطتهم الفعلية. لم تكن ثورة غضبهم على الرسول ﷺ بسبب شعائر مختلفة، ولكن لأنه (سفه أحلامنا وسب آلهتنا) ولو توقف عن ذلك لأعطوه الملك والجاه والمال و(لعبدوا إلهه يوما وآلهتهم يوما)، كانت كل الحلول الوسط مطروحة المهم هو التوقف عن تقويض المشروعية لأن هذه هى بداية النهاية. وعندما رفض رسول الله ﷺ كان التهديد بالمنازلة حتى يهلك أحد الفريقين.

إذن هناك مسافة ضرورية بين الإعلان عن عدم المشروعية، وبين التقويض الفعلى للنظام غير المشروع. وأصحاب الدعوة من الأنبياء والمرسلين وورثتهم وأتباعهم يعلنون ذلك ولا يخفون، لأنهم يستهدفون بذلك عبادة الله، وهداية أبناء المجتمع.

لقد أعلنت الحركة الإسلامية فى إيران عدم مشروعية نظام الشاه فى الأربعينيات من القرن العشرين، ثم خرجت عليه فى ١٩٦٥ وفشلت ثم خرجت عليه فى

٧٨، ١٩٧٩ وأطاحت به، ولولا تدمير الأسس الشرعية للنظام على مدار عدة عقود ما تمكنت الثورة من النجاح.

وهذه سنن فى شتى المجتمعات البشرية لا تقتصر على المجتمعات الإسلامية ولا على إقامة الدولة الإسلامية فالإعلان عن عدم مشروعية النظام الاقطاعى فى أوروبا كان مرحلة ضرورية للإطاحة به، والإعلان عن عدم مشروعية النظام الشيوعى كانت بداية تقويضه.. إلخ، وكل حركات المعارضة التى تملك مشروعا بديلا لنظام شائخ لابد أن تمر بهذه المراحل. ولكن عندما يفعل ذلك المؤمنون بهدف إعلاء كلمة الله، فإن عملهم يكون عبادة. ولكن ما المقصود بالإعلان؟ المقصود اصدار فتوى شرعية من العلماء والفقهاء وأهل الحل والعقد عموما، ثم يتابعون ذلك بالشرح والتفصيل والتحريض لعامة المؤمنين.

وسنأتى لما ورد فى الفقه الإسلامى تفصيلا بإذن الله، ولكننا نضع القاعدة من البداية، أن النص القرآنى ينفى

أى احتياج للاجتهاد، كذلك فان الاحتكام لكتاب الله هو جوهر العقيدة، فإذا منع الحاكم هذا الاحتكام، فهل يجوز أن ينشغل المؤمنون بقضية أخرى أهم من ذلك؟! أم ينكمشوا ويطالب العلماء جمهور المؤمنين بالاكتفاء بالشعائر حتى يهلك الله الظالمين بالظالمين ونخرج من بينهم سالمين. إن الجهاد من أجل إقامة الدين على طريق بلال وسمية جزء لا يتجزأ من العقيدة بل هو ذروة الإيمان، فكيف يمكن لجيل أن يتخلى عن ذلك بدعوى عدم القدرة!! وأن يغفل مسألة التوكل على الله، وأن القدرة الإلهية توفر أسباب النصر مهما اختلت الموازين المادية، متى أخذ المؤمنون بأسباب النصر.

فى كثير من الأحيان يكون من الصعب أن تدرك المغزى الأعمق لآية من القرآن الكريم دون أن تربطها بما قبلها أو بعدها مباشرة من الآيات. فقد يتصور البعض أن حديثنا قد جاء مبالغا فيه و أنه حمل الآية أكثر مما تحتمل بأمور سياسية (ليحكم بين الناس) ولنفي ذلك أنظر إلى الآية التالية مباشرة.. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا

الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

إذن ها نحن فى قلب السياسة دون أى لبس، انه الابتلاء والصراع المرير من أجل النصر.. الذى يدفع حتى الرسل أنفسهم والمؤمنين للتساؤل واستعجال النصر.. فيكون جواب الله سبحانه وتعالى ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، وهذه المعانى جاءت عامة تشمل الصراعات ذات الطابع السلمى السياسى أو العسكرى.

المهم أن هذه الآية تشير بوضوح إلى أن دخول الجنة (وهو علامة صحة العقيدة) مرتبط بالاندفاع فى هذه المنازلة الصعبة، وأن ابتغاء النصر هدف مشروع بل وضرورى للمؤمنين، وأنهم لا يستعذبون الآلام فى سبيل الله دون تمنى النصر، بل إن الفطرة تجعلهم يحبون النصر ويرجونه، وحب النصر للمؤمن أكثر إلحاحا

وأعلى رفعة من طالب النصر الدنيوى، لأن سعادة المؤمن بالنصر أنه كان أداة إعلاء كلمة الله، وأنه شاهد بعينه انتصار الرسالة، وهذا يثبت إيمانه وإيمان إخوانه، وأن ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٥]، يفرح بأن رسالة السماء وجدت صداها وانعكاسها على الأرض وأنه كان وسيلة تحقيق ذلك، لذلك فان النصر عند المؤمن هو لحظة ذل وخضوع لله وتواضع للناس، وليست لحظة تجبر وتكبر وانتقام وثأر وخيلاء. لذلك ترى هذه المفارقة (بالمعنى الدنيوى) فى سورة النصر.. أى أن لحظة النصر الكاسح والفتح ودخول الناس فى دين الله أفواجا هى اللحظة المناسبة لـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر] .. النصر عبادة، لانه انتصار لدين الله، ولا يجوز لمسلم أن يفتخر بأنه لا يسعى إليه.

إذن جاءت الآية تأصيلا للجهاد فى أعقاب آية تشير إلى مرجعية الكتاب. فكيف «يفتى» أحد بالصمت على عدم مشروعية نظام لا يحتكم إلى الكتاب.

النهى عن الفرار من الموت

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[البقرة : ٢٤٣].

وتشير هذه الآية إلى أن إقامة الدين والمجتمع المسلم والدفاع عنه ليست نزهة، وليست رياضة روحية لطيفة بلا أعباء أو تكاليف أو تضحيات جسام وعلى رأسها المصيبة الكبرى والأولى للإنسان: الموت. حتى لقد وصف الشيخ محمد أبو زهرة الجهاد بأنه (في أدق معناه هو تعرض النفس للتلف ليبقى المجموع فهو إيثار بالنفس وبذل للمهج والأرواح)[١٠]. وعليه فإن التصدى للدعوة الإسلامية دون الاستعداد لهذا البذل وتلك التضحية يكون معوجا ومخرجا لصحيح الدين عن سياقه. ولايوجد على المسلمين أوجب من الجهاد لإعادة تجديد وإحياء الدولة الإسلامية، وهذه الدولة

الإسلامية لن تكون بدون بذل النفس والنفيس، العرق والدم، والحياة نفسها.

إن الذين يفرون من واجب الجهاد من أجل إقامة الدولة الإسلامية بكثرة الحديث عن عواقب القمع والاضطهاد والسجون من أعداء الله هم أشبه بهؤلاء القوم (الذين لم يحددهم القرآن الكريم لتأكيد وابراز جوهر الناموس الاجتماعى الحاكم) الذين فروا من ديارهم رغم كثرتهم (ألوف) هربا من الموت، فكانت النتيجة أن لقوا الذى يفرون منه بالتحديد، وهو الموت، ولكنه موت الخزى والعار لاموت العز والفخار. ورغم أن المفسرين القدامى والمعاصرين اختلفوا حول معنى «الموت» و«الإحياء» هل كان حسيا كمعجزة، أم فى صورة معنوية بمعنى سنة موت وحياة الأمم ولكن يبقى فى الحالين أن العبرة واحدة: «انه لن ينفى حذر من قدر وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه فان هؤلاء خرجوا فرارا من الموت طلبا لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعا فى آن واحد»(١١).

لقد ابتلانا الله فى هذه الحياة الدنيا، وأمرنا بالجهاد لإعلاء كلمته، وان الفرار من الجهاد خوفا من الموت أو ما هو أدنى منه: تعذيب ـ تضييق ـ سجون، هو مخالفة لسنن الله وأوامره للمؤمنين.

لماذا إذن لانجاهد حكاما رفضوا الاحتكام لكتاب الله وسنة نبيه؟ حتى الموت فى بلادنا فى الظروف الراهنة ليس هو الخطر الوشيك الذى يتهددنا فبعد إعدام الشهيد سيد قطب، أى منذ حوالى ٤٠ عاما لم يعدم إنسان لأنه عارض الحكام بالكلمة وبوسائل سلمية، أما الإعدامات وعمليات القتل غير الشرعية الموجهة للجماعات الإسلامية فكانت فى إطار حرب معلنة استخدمت فيها الوسائل المسلحة من الطرفين (وليس الآن مجال تقييمها).

المهم ان الدعوة لإقامة دولة إسلاميةٌ ورفض الحكم الحالى والسعى إلى تغييره بالوسائل السلمية لايؤدى إلى الموت الفورى وفقا للحسابات العقلية، ومع ذلك

نجد أكثر الناس، وحتى العاملين فى الحقل العام، يخشون من هذه المواجهة الشرعية، فما بالنا وأن الموت يجب ألا يثنينا عن هذا الهدف الربانى، حيث العمل من أجله هو مبرر وجود جماعة المؤمنين. بل أن سيد قطب رحمة الله عليه هو أكثرنا حياة رغم إعدامه، وما قدمه من تثقيف لأجيال متواصلة من بعده أكثر مما قدمه كثير ممن يظنون أنهم أحياء. وأى شهيد وإن لم يمتلك قدرات سيد قطب الفقهية والعقلية وإمكانيات البيان، هو أكثر حياة من أموات يسيرون على الأرض، بما قدمه من نموذج ومثال، وبما عبده من طريق التحرير، وبما برهن به على صدق الإيمان لينير الطريق لمن بعده وهم فوق كل ذلك ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فإذا نحن لم نكن على استعداد دوما للموت فى سبيل الله فبئس إيماننا الذى نزعم. ونحن الآن لسنا ألوفا بل ملايين ولكننا ندعى عدم القدرة على الانتصار لكلمة الله، مع أن الله هو المتكفل بالنصر، إذا نحن أخذنا

بالأسباب، وأهم الأسباب المهدرة الآن هو عدم الصدع بالحق والجهر به على رؤوس الأشهاد لأننا لسنا فى زمن الدعوة السرية.

والإيمان بالقضاء والقدر ركن ركين من العقيدة (وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)(١٢)، وإن كنا فى أمس الاحتياج إليه فى حياتنا وابتلاءاتنا الشخصية فنحن أحوج إليه فى جهادنا فى سبيل الله. ولنتذكر بالإضافة لذلك قول الله عز وجل ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨].

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٧ـ ٧٨].

أما الآن فإننا نسمع عن دعاة يقولون لا نخوض فى السياسة حتى لا نحرم من المنبر أو الحلقة أو الدرس فى

المسجد، أو حتى لا نحرم من برنامج تلفزيونى، أو مقال فى صحيفة. ونسمع من يخشى مواجهة الطواغيت بجرائمهم، ويخشى السعى لتعبئة الناس ضد سياستهم غير الشرعية، بل يسعون إلى المصالحة مع الحكام لإعطاء مزيد من الفسحة لـ«الدعوة» وخشية على التنظيم أو الحزب.

ولكن عدم الخوض فى السياسة يعنى نشر دعوة منقوصة، يعنى عدم بسط الإسلام كما هو، كما جاء فى القرآن والسنة، ويعنى التخلى عن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى أهم خاصية من خصائص الأمة الإسلامية.

والقرآن الكريم هنا صريح يتحدث عن الخوف من الموت، حتى وإن كان هذا الخطر حقيقيا، ويدعوننا لعدم إقامة حساباتنا على أساس هذا الخوف فما بالنا بالاعتقالات والتضييق وابتلاءات أقل من الموت.

* * *

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وتشير قصة طالوت إلى دروس ونواميس شتى فى قضية الحكم فى الإسلام وكل ما نستنبطه من القرآن الكريم يصبح ملزما بصورة مطلقة ويجب أن يكون مرشدا فى حياتنا، وما القصص القرآنى إلا إحدى وسائل عرض المبادىء والقواعد والقوانين ووصفه الله سبحانه وتعالى بأنه ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١]. ولا تقتصر عبر قصة طالوت على الصراع الحربى بل أن كل القوانين المستنبطة منها تنطبق على شتى أنواع الجهاد بالإضافة إلى أن قصة طالوت مرتبطة بقضية السلطة السياسية، واستعادة المؤمنين للسلطة التى نزعت منهم

مع تشريدهم من ديارهم من قبل طواغيت ذلك العصر.

وحول قضية السلطة السياسية يمكن أن نشير إلى النقاط التالية:

١ـ أن الدين هو أساس العزة لمن غلبت عليهم الشقوة. فبعد فترة من ضياع بنى إسرائيل بعد موسى نتيجة بعدهم عن الدين عاودتهم الصحوة وأدركوا أن العزة تكون بالعودة إلى الدين ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦].

٢ـ إنه من السنن أنه لا سلطان بغير إمرة يعمل تحت سلطانها الجميع.

٣ـ أن الأمير يجب أن يكون له من قوة العقل وقوة الجسم وسعة العلم وكمال التجربة ما يقود به الشعب إلى صالح الأمور(١٣).

الملكية والنظام الملكى

والأصل فى النظام الملكى أنه لكى يكون الملك ملكا

وتنصاع لـه بقية الجـماعـة وتطيع أوامره أن يكون أكـفأ وأقدر من فى الجماعة كلهـا على الحرب والقتال بحيث لا يقوى أحـد على منازلته فضلا عن التـغلب عليه وإلا فـإن هذا الغـالب يصبح هـو الملك، أى أن فكرة الوراثة «التى أصـبحت من سـمات الملـكية» بدعـة على النظام الملكى وهذا ما توضحه هذه الآية الكريمة(١٤).

هذه زاوية بالغة الأهمية أبرزها تفسـير أحمد حسين، وهى رؤية أكدها التاريخ فى مخـتلف العهود والعصور والأمصار، فمن السنن الاجتماعية أن يحكم الأصلح أو واحـد على الأقل من أفضل الـصالحـين، فإذا تصـورت أسـرة أن تظل تحـكم بالوراثـة بغض الـنظر عن فـكرة الأهليـة فإن القـوة كانت هى الـوسيلة الشـائعة لإزاحـة الحكام وازاحـة الأسـر الحاكـمـة. أى أن ما لا يتـحـقق بالتـراضى والقبـول العام أو البـيعـة أو ما نسـميـه الآن الإنتـخاب، يتـحـقق بالثورات والتـصـفيـات الجسـدية والتمردات العسكرية والاغتـيالات، لذلك نجد فى كثير

من صفحات التاريخ حكاما حكموا لأيام أو أسابيع أو شهور أو سنين قليلة. أما استطالة حكم الملوك والحكام الفاسدين والفاشلين فهى عادة ما تكون من مراحل التحلل الحضارى الشامل فى المجتمع، ومن أبرز مظاهرها عدم بروز قوى بديلة تصارع من أجل الإصلاح والتغيير، وهى مرحلة من التعفن الاجتماعى بسبب تراجع فكرة التدافع ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

شروط الحكم

ويشير القرطبى إلى أن هذه الآية تضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة لا بالنسب، فلا حظ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس وأنها متقدمة عليه لأن الله ـ تعالى ـ أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته وإن كانوا أشرف منتسبا(١٥).

وفى تفسير البيضاوى (بأن الشروط فيه ونور العلم ليتمكن من معرفة الأمور السياسية. وجسامة البدن ليكون أعظم خطرا فى القلوب، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب)(١٦).

إذن نجد فى هذه الآية تأكيدا على المعنى المشار إليه فى الآية السابقة ﴿لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ برفض فكرة النسب وصلة الدم لتوارث الحكم، وأن الأساس هو العدالة. ثم نجد هنا شرطين اضافيين:

١.**شرط العلم**: وهذا الشرط جاء عاما بحيث يشمل العلم الشرعى: العقيدة والدين، والإدراك السياسى وفهم الواقع، وبالتالى فإن الحاكم إذا لم يكن أحكم الناس وأكثرهم رجاحة فى العقل وهذا ما يصعب الاتفاق عليه بعد انقطاع النبوة (وفى هذا القصة فإن النبى هو الذى حدد لهم الملك على أساس الوحى وهذا لم يعد قائما الآن، بل الشورى والبيعة)، نقول وإن كان

من الصعب أن يجمع الناس على أن شخصا معينا هو الأفضل والأصلح لتولى الحكم، فإن الأساس أن يتم الاختيار بين أكثر الناس علما وثقافة ودراية بالدين والسياسة معا، مع تحرى الأفضل قدر الإمكان. وبالتالى فإن تولى الجاهل أو التافه أو الرويبضة (أى الرجل التافه الحقير) لمقاليد حكم مجتمع، خرق لتعاليم القرآن الكريم، وهو فى ذات الوقت وعلى نحو متطابق، خرق للسنن الاجتماعية، التى وضعها الله سبحانه وتعالى لإعمار الأرض، وهى أشبه بالقوانين الطبيعية يمكن أن تصل إليها إذا استخدمت عقلك استخداما سليما، وحيث لا يوجد أى تعارض بين العقل والنقل، بل نجد تطابقا بينهما. ولذلك فإن الأمم الغربية والشرقية سبقتنا لأنها كانت الأقرب للأخذ بهذه السنن منا نحن المسلمين، فلم تترك على سدة الحكم أكثر أفرادها جهالة أو حماقة أو تفاهة. والمسألة لا تتوقف على تقييم

شخص الحاكم رغم أهميته القصوى كما أكدت وقائع التاريخ والسياسة المعاصرة، وإنما المستوى الفكرى والثقافى العام للطبقة الحاكمة. وبالتأكيد فإن الحاكم الجاهل سيحرص أن يحيط نفسه بالجاهلين أو الأكثر جهلا منه، والحاكم اللبيب سيستعين بأكثر الناس نجابة إدراكا منه لضرورة ذلك لرفع مستوى الأداء، كما أن تمتع الحاكم بقدر معقول من العلم لا يجعله مصابا بعقدة نقص من العلم والعلماء، بل يدرك أن أحدا لا يحتكر العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] وأن العلماء والمفكرين يكمل بعضهم بعضا.

وقد أصبح من معايير الرئاسة الأمريكية على سبيل المثال أن يكون من خريجى جامعات رفيعة المستوى الأكاديمى مثل (هارفارد أو ييل) وأن يكون ذى عقلية فذة وأفق متسع من شروط القيادة فى الصين، وقد رأينا كيف تقدمت ماليزيا الإسلامية لأنه حكمتها طبقة

سياسية من أمثال محاضر محمد، ونرى المستوى الثقافى الرفيع لحكام بلاد مثل إيران والسودان، أما فى بلدان التبعية والانهيار والامعان فى البعد عن كتاب الله نجد حكاما أميين بالمعنى الحرفى والمجازى، وإذا خرجوا عن النص المكتوب لهم قالوا كلاما فارغا لا يقال حتى على المقاهى. وهؤلاء جهلاء فى الثقافة الإسلامية، ضعفاء فى الثقافة العامة والسياسية، يحفظون جملا قصيرة يرددونها فى المؤتمرات الصحفية، وإذا دخلوا فى حوار طويل نسبيا انكشفت عوراتهم. ولولا وجود بعض المؤسسات المعاونة الأكثر رشدا منهم لأنهار حكمهم فى ثوان.

يبقى أن اختيار الأقل كفاءة لإدارة البلاد، معناه الإنحطاط بالأداء العام للمجتمع، على مستوى الدين والدنيا معا، وأن إشارة القرآن الكريم إلى «العلم» دون تحديد جعل اللفظ ـ كما ذكرنا ـ ينطبق على العلم

الشرعى والدنيوى وهو ما ذكره الماوردى عندما حدد مهمة الحاكم (حراسة الدين وسياسة الدنيا). فإن حراسة الدين لا تتأتى دون حد أدنى من الورع والتقوى ودون حد أدنى من العلم الشرعى، وسياسة الدنيا لا تتأتى دون معرفة وخبرة وثقافة فى عالم السياسة والاقتصاد والثقافة العامة. وهكذا نجد كيف استند فقهنا العظيم لأصول العقيدة وأحكامها فى القرآن والسنة.

كذلك فإن المتابعة المتأنية لشئون الحكم والاقتصاد والاجتماع، توضح لنا أن المسئول الأول عن الموقع التنفيذى أو الاقتصادى (شركة) أو الحكم المحلى.. إلخ يكون له أكبر الأثر فى صلاح أو فساد المؤسسة التى يرأسها ويشرف عليها. فالمسئول الأول بما له من سلطات وصلاحيات، وبما يمثله من قدوة يصلح أو يخرب الموقع الذى يترأسه. بل إن هذه السنة تتواصل حتى الخلية الأولى للمجتمع (الأسرة) فعلى الأغلب

الأعم تصلح الأسرة إذا صلح ربها وتفسد إذا فسد، واحتمالات صلاح الأسرة أكبر إذا صلحت القيادة المشتركة للأب والأم وهكذا. إذا كان الأمر بديهيا بهذا الشكل فكيف يمكن على مستوى المجتمع بأسره، أن يترك المسلمون رأس الدولة لشخص متواضع الإيمان والعقل والثقافة. وهو الأمر الذى نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام كما سنوضح فيما بعد.

٢.**شرط سلامة الجسد**: وتشير الآية الكريمة ليس إلى ما زاده الله من بسطة فى العلم بل أيضا فى الجسم، وهذا يشير إلى ركنين مهمين:

١ـ سلامة الحالة الصحية والجسدية للحاكم.

٢ـ أهمية صلابة البنيان الجسدى بشكل خاص للحاكم الذى سيتولى القيادة الحربية للأسباب التى أشار إليها المفسرون أى ليقوى على أداء مهمته ـ وليكون قدوة لجنوده، ورهبة فى عيون الأعداء.

وقد أجمع الفقهاء فيما بعد على ضرورة سلامة حواس الحاكم وبالأخص البصر والسمع. واختلفوا حول ضرورة سلامة سائر الأعضاء. و قد كان الرسول عليه الصلاة والسلام قوى البنيان ومحاربا، وكذلك كان حال الحكام المسلمين الأوائل فى كل فترات الأزدهار الإسلامى والفتوحات الإسلامية. بل لقد انطبقت هذه الشروط (قوة العلم والجسد) على حكام الولايات.

والأمة الإسلامية أمة مجاهدة وهى مهددة باستمرار من الأعداء، ولابد أن تكون على أهبة الاستعداد للغزو ردا على مكائد الأعداء، وكذلك حماية الثغور وتطهير البلاد الإسلامية من أي قوة احتلال. ولذلك فإنه فى الأغلب الأعم سيكون الأكثر تأهيلا ومناسبة للحكم هو الذى زاده الله بسطة فى العلم والجسم، وهذا هو المزيج المثالى المفضل إن وجد. ويجب عدم التقليل من بعد سلامة الصحة بسبب أساليب الحرب الحديثة، فستظل

الحروب تعتمد على قوة الإرادة ومواصلة الليل والنهار، والحفاظ على القدرة على التركيز، بالإضافة للجهد البدنى الذى لن يتوقف أبدا فى العصور الحديثة. وهذا الذى دعا إليه القرآن الكريم هو سنة من سنن المجتمعات البشرية جمعاء. فسلامة صحة الحاكم وقوة بنيانه من أهم علامات شرعية حكمه بعد (العلم)، فبعد العلم تكون القدرة على العمل والتنفيذ وحالة الانتباه واليقظة التى لا تتأتى إلا لصاحب الجسم السليم. وكثيرا ما حاول الحكام إثبات قوة صحتهم عند تعرضهم لأزمات سياسية فكان ماوتسى تونج الزعيم الصينى يسبح فى النهر لمسافات طويلة وتصوره وسائل الإعلام، وبعده فعلها صدام حسين. واليوم فإن خصوم المرشح الديمقراطى للرئاسة الأمريكية يهاجمونه من زاوية اعتلال صحته وأنه أجريت له عملية استئصال سرطانية منذ عام. وفى المقابل فإن الحكام الذين يرغبون فى إطالة

أمد حكمهم يخفون ـ قدر الإمكان ـ التقارير الحقيقية عن اعتلال صحتهم، فقد أخفى الرئيس الفرنسى ميتران أصابته بالسرطان حتى نهاية مدة رئاسته، وأخفى كثير من زعماء الشيوعية التقارير عن حالتهم الصحية، ويخفى حاكم مصر الحالى الأوضاع الحقيقية لصحته. كما أخفى من قبل الملك الحسن (المغرب) اصابته بالسرطان. وهكذا فإن الحالة الصحية الدقيقة للحاكم تعد من الأسرار الخطيرة للدولة، وتزداد المسألة شراسة فى النظم الاستبدادية، وهذا ما يؤدى إلى حالة غير شرعية، باستمرار حاكم غير مؤهل صحيا لأداء واجباته، وهذا يقود إلى قيام أشخاص غير معروفين بإدارة الدولة، قد تكون الزوجة أو الأولاد أو حتى السكرتير الشخصى، أو الأجهزة الأمنية أو خليط من كل ذلك، وهكذا لا تستقيم الأمور، ولا يمكن محاسبة الحاكم بصورة دستورية سليمة على تصرفاته وقراراته

التى لم يعد متحكما فيها، ويؤدى تدهور الحالة الصحية للحاكم إلى تدهور حالته النفسية والعقلية، وتنكمش علاقاته المباشرة بالمجتمع، وتنحصر صلته بالعالم الخارجى فى تقارير محدودة، أى تؤدى حالته الصحية المتدهورة إلى خلق غلاف كثيف بينه وبين العالم الخارجى، ويصبح غير مؤهل لاتخاذ القرارات السليمة. وقد أشار القرآن الكريم إلى سن الأربعين باعتباره يمثل ذروة وكمال القوة النفسية والعقلية والبدنية فى حياة الإنسان ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:١٥].

وقد كان هذا هو عمر الرسول عليه الصلاة والسلام حين بعث رسولا. ومن المثير للسخرية أن متوسط عمر الحاكم فى البلاد غير الإسلامية فى الشرق والغرب أقرب إلى هذه السنة الإلهية (من ٤٠ حتى ٦٠ عاما)، أما فى بلادنا فالحكام يتجاوزون الخامسة والسبعين

وأحيانا يتجاوزون الثمانين ويبقون فى مناصبهم حتى الموت!! وكذلك كان الحال فى معظم النظم الشيوعية التى سقطت.

علاقة الصحة والقوة البدنية بصلاحية الحاكم موضوع ملىء بالدروس التاريخية، ولكننا نكتفى بهذه الإشارة العامة، لنؤكد أن حاكما طاعنا فى السن، معتل الصحة، يكون قد فقد أحد أركان أهليته وصلاحيته للحكم، والتقدم فى السن (إلا من رحم ربى) يعنى الأصابة بأمراض الشيخوخة وأهمها ضعف الذاكرة، وتناقص القدرة على العطاء، وضعف التركيز، والتوقف عن التجديد والإبداع حيث يبدأ العد العكسى، لأن الإنسان يتجه فى هذه الحالة إلى مرحلة الطفولة من جديد ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٠]، وبالتالى من هبط من الذروة فى طريق العودة إلى الطفولة لا يمكن أن يصبح مسئولا عن بلاد وشعب ومجتمع!!

وهناك استثناءات لذلك تؤكد القاعدة، ومن أبرز الأمثلة المعاصرة عليها حالة الخمينى قائد الثورة الإيرانية الذى حافظ على توهجه الفكرى والثورى وقدرته على قيادة الدولة بعد السبعين وحتى وفاته وهو فى قرابة الثمانين، ولم يعان من الانهيار الصحى إلا فى الشهور القليلة السابقة على وفاته. مع ملاحظة أنه لم يتول الإدارة التنفيذية اليومية للدولة أبدا حيث ظل فى موقع المرشد العام وترك الإدارة لرئيس الجمهورية ومجلس الوزراء وباقى الأجهزة التنفيذية.

نقول هذا من الاستثناءات القليلة التى لا يقاس عليها. أما فى بلاد العرب والمسلمين فقد وصل الأمر إلى أن الحاكم يفقد القدرة على الكلام والسمع وحتى الفهم، أى يتعطل عقله نهائيا، بينما يستمر ملكا، لأن الصراع على السلطة اقتضى ذلك الوضع المريب وغير الشرعى.

ومن الحكام من لا يتمكن إلا من العمل لساعات محدودة ينفقها فى الظهور التلفزيونى ليؤكد أنه فى تمام الصحة والعافية. وهكذا تنقلب الأمور ويتحول إخفاء الحالة الصحية للحاكم إلى هدف رئيسى للدولة، بدلا من انفاق الجهد والوقت فيما ينفع الناس.

* * *

على الأمة الإسلامية المستيقظة إلى قرآنها، أن تعود إليه بقوة وأن تأخذه بقوة كما أمرنا الله سبحانه وتعالى ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢] ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة:٦٣]. والأخذ بالقوة، تعبير محكم جامع، يشير إلى أخذه كله وليس جزءا دون جزء، وبجد وجدية واجتهاد وإخلاص وتفانى فى الالتزام والتنفيذ.

لقد تعودت الأمة على التدقيق فى الشعائر ولكنها لم تعد بعد إلى التدقيق فى كل هذه الآيات التى تضع لنا

علامات الحكم الصالح، وكيف يجب أن ندعو إليها، وكيف يجب أن نجاهد الحاكم الذى لا يأخذ بهذه العلامات أو يكون بالأساس غير مؤهل وغير صالح لها. فإذا لم تكن شروط الحاكم تنطبق عليه بالحد الأدنى فيتعين خلعه أو السعى والجهاد من أجل ذلك، والشروط التى خلصنا بها من هذه الآيات:

١ـ العدالة.

٢ـ العلم.

٣ـ السلامة الصحية والجسدية.

* * *

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

تصور لنا هذه الآية نهاية قصة الصراع بين معسكر الحق ومعسكر الباطل والتى انتهت بفوز أهل الحق، والفوز الحقيقى يرتبط بإقامة الملك الصالح، أى الحكم الصالح، أى ما نسميه الآن «الدولة الإسلامية»، إذن فالهدف من التدافع هو إصلاح الدنيا وإقامة الحكم العادل الذى يتحول الجهاد من أجله إلى جزء لا يتجزأ من العقيدة، من الإيمان بالله.

وقصة طالوت وجالوت تحتوى على أهم سنن التغيير الاجتماعى ويهمنا أن نشير بالإضافة لما ذكرناه من قبل..

١ـ أن الابتلاء هو سنة التغيير وأنه لا يمكن تحقيق

النصر بدون تضحيات واختبارات وعطاء، وأن هذا الابتلاء يتكرر فى مختلف مراحل الجهاد وليس فى مرحلة معينة فحسب. وأن القائد الحكيم يتعين عليه أن يختبر جنوده باختبارات عدة قبل ساعة المنازلة الكبرى ليفرز مستوياتهم واستعدادهم للتضحية. (موضوع عدم الشرب من ماء النهر إلا من اغترف غرفة بيده).

٢ـ أن أهم هذه الابتلاءات هو عدم التوزان فى العدد والعدة بين أهل الحق، وأهل الباطل، وهذه مشكلة أزلية، إذ كثيرا ما تتخلى الحركات الإسلامية عن المواقف الشجاعة أو المواجهة بحجة عدم توازن القوى مع الحكومة وهو أمر كما نرى يتعارض بصراحة ووضوح مع النص القرآنى بل إن الآيات تشير إلى أن هذه هى السنة بشكل عام ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، وما ينطبق على العمل الحربى ينطبق على العمل السياسى

السلمى كما وزد فى القرآن الكريم فى قصص الأنبياء وكما رأينا فى مسيرة التاريخ البشرية.

إن الأخذ بالأسباب لا يعنى امتلاك وسائل قوة مكافئة للعدو بالضرورة، لأن الباطل عندما يكون مسيطرا فإنه لا يسمح لأهل الحق أن يكونوا قواهم بصورة كافية، كما أن سطوة الباطل قامت فى الأصل على أساس سحق أهل الحق وتهميشهم وطردهم من ديارهم.

إن الأخذ بالأسباب فى هذه القصة يمكن أن ينحصر فى الآتى:

* العقيدة الصحيحة والاستعداد المخلص للموت فى سبيل الله، وهذه أهم عدة للنصر.

* الجهاد بالمال ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] إذن لابد من تمويل المجاهدين وتجهيز الجيوش.

* توفير القيادة الصالحة وقد أشرنا إلى شروطها وهو ما يعنى أنها ستقوم بأقصى استعداد ممكن ولكن ليس بالضرورة إلى درجة التساوى فى القوة المادية مع العدو.

* تدريب جيش المجاهدين ووضعه فى اختبارات عدة.

* الصبر والثبات عند المواجهة ووضعه مع مواصلة الدعاء إلى الله.

إن تركيز بعض الحركات الإسلامية على عدم التساوى فى القوة المادية مع العدو كتكئة لعدم الإقدام على المواجهة فيه مخالفة صريحة للنص القرآنى، وهو يصيب الحركات الإسلامية بمرض بعض الأحزاب العلمانية أو المادية التى تحصر موازين القوى فى مسألة العدد والعدة، وتغفل السبب الجوهرى للنصر وهو توفيق الله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ودعاء المجاهدين لله بالنصر ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا

عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠]، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥١].

٣ـ أن مهمة فريق المؤمنين فى كل جيل، وعصر، وأوان أن يجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة الحكم العادل. وأن هذا السعى جزء لا يتجزأ من العقيدة الإيمانية، بل الهدف الأسمى لها على الأرض باعتباره تكليفا إلهيا.

وفى قصتنا نجد أن داود هو الذى قتل جالوت وهو الذى أتاه الله الملك، ولم يذكر لنا القرآن سبب هذا الاستبدال ولماذا انتهى دور طالوت بانتهاء المعارك الحربية، المهم أن معسكر المؤمنين قد انتصر، بل إننا نرى الحكمة الإلهية واضحة فى أن النبى المرسل أصبح هو الحاكم السياسى، وليس طالوت الذى لم يكن نبيا، وهو تأكيد على الدمج بين الدين والسياسة، بين النبى وقيادة الدولة.

* * *

﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

هنا نجد الربط المحكم بين المُلك والنبوة، بين العلم الشرعى (الحكمة) والعلم الدنيوى ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾. فالحكمة فسرت على أنها النبوة أو الزبور ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ [النساء:١٦٣]، والعلم الدنيوى هو ما نسميه الآن العلوم الطبيعية ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠]،(١٧) أى صنعة الدروع وهذا على سبيل المثال.

وإذا كنا الآن وحتى يوم الدين نعيش فى عهد انقطاع النبوة إلا أن هذه القوانين لا تزال سارية، أى عدم جواز الفصل بين الدين والسياسة، بين العلوم الشرعية والعلوم الطبيعية. وأن العلماء ورثة الأنبياء وهم الأحق برئاسة المجتمعات ولكن وفقا لهذه الشروط القرآنية، فالمسألة ليست مجرد شهادات من معاهد أو زى معين، وإنما التبحر فى علوم الله اللدنية والدنيوية والتجرد لله

سبحانه وتعالى فى الأخذ بهذا العلم والالتزام به وبتطبيقه، وأن «الحكمة» تعنى ـ أول ما تعنى ـ هذا الإيمان العميق الصادق بالله، وبيع النفس لله، فالمسألة ليست مجرد معلومات، أو محفوظات كما نرى أمثلة أمامنا من وعاظ السلاطين أو دارسون للعلوم الشرعية لا يفقهون حديثا فى أحوال الدنيا وعلومها ولا يعلمون عنها إلا اليسير، ولكنهم يفتون بكل جرأة إذا طلب منهم السلطان أو طلب منهم العامة ولا يعرفون كلمة (لا أدرى).

وسنجد فى العصر الراهن أن الحركات الإسلامية التى حققت نجاحات أكبر من غيرها هى التى التزمت بهذه القوانين القرآنية. ولا نقصد بالنجاح مجرد الكثرة والانتشار، بل التقدم على طريق التمكين لدين الله أى إقامة الحكم العادل الصالح. أما الأنظمة الحاكمة الفاسدة فى أغلب الدول الإسلامية فهى بعيدة عن هذه القوانين بعد الثرى عن الثريا.

٤ـ التخلص من رأس الفتنة: وتشير الآية إلى سنة اجتماعية بالغة الأهمية، وهى ارتباط هزيمة معسكر الباطل بالتخلص من قائده. ذلك أن استهداف رأس السلطة بالقتل أو العزل (أى التخلص منه) مسألة ضرورية لحسم الصراع ولكن فى إطار تقويض النظام ككل حتى لا تتلخص القضية فى شخص الحاكم، وهذا طبيعى لأن الحاكم تتحلق حوله فئات وطبقات مستفيدة، والصراع معه ليس مسألة شخصية، ولكن فى نفس الوقت فإن الحاكم ليس مجرد شخص ضمن النظام الحاكم، فهو رمز له وقائد ومحور لتجمع ذرات الباطل، فالتخلص منه أمر جوهرى ولكن دون أن يقتصر التغيير على ذلك. ولذا نجد الآية الكريمة تضع فى المقدمة ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى دحر وكسر الهيكل الأساسى للنظام ثم ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾.

وفى ذلك يقول الشيخ محمد أبو زهرة:

«إن هذا التعبير السامى، بيان لسبب من أسباب

الانتصار الدنيوى بعد أن وهبهم الانتصار اللدنى ذلك أن طاغيتهم قد قتل، وهو الذى يفرض أهواءه وشهواته عليهم فيجعل منهم جندا طائعين له يسيرون مع رغبته فى السلطان والقهر والغلب بالحق وبالباطل، وكذلك الشأن دائما فى أهل الباطل يجتمعون على رجل ويسيرون وراءه، فليست لهم إرادة غير إرادته، ولا روح جماعية تجعل لهم كيانا قائما بذاته، بل يكون الطاغية هو المسلط عليهم، يملى إرادته على أحدهم ولا إرادة لأحد وراء إرادته، فإذا قتل ذلك الطاغية أو قضى على سلطانه تفرق الجمع»(١٨).

ونخلص من ذلك أن التخلص من رأس النظام الفاسد جزء لا يتجزأ بل وجزء أساسى وحاكم فى خطة الإصلاح.

* * *

ونرى أن كل هذه السنن لا تنطبق على أشكال الصراع الحربى فحسب بل هى نواميس تحكم عملية

التغيير بكل أشكالها كما سيتضح فى آيات القرآن الكريم القادمة بإذن الله. بل ان هذه الآية نفسها تنتهى بهذا التعميم الشامل الجامع المانع:

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١] فهذه البلاغة القرآنية فى استخدام كلمة «دفع» من «التدافع» جاءت بحيث لا يقتصر الأمر على الحرب دون أشكال الصراع السلمى. ولا يقتصر الأمر على مجرد الصراع بين معسكرى الحق والباطل، بل هو يتضمن كل أشكال التدافع بين الخير والشر فى داخل كل المجتمعات، بما فى ذلك المجتمعات الإسلامية(١٩).

وفيما يتعلق بموضوعنا نفهم من هذا الشق من الآية الكريمة، أن الله سبحانه وتعالى يكلف المؤمنين بالجهاد من أجل إقامة النظام الصالح ودفع المتكبرين الأشرار عن سدة إدارة المجتمعات وإلا فسدت الأرض، أى تعفنت وأسنت الحياة عليها. وقد جاءت الصياغة

القرآنية فى شكل قانون اجتماعى، فى إشارة إلى حتمية عمل هذا القانون فى شتى المجتمعات.

إذن ليس من حق المؤمنين أن يتعايشوا مع أنظمة الفساد والاستبداد وموالاة أعداء الله والحكم بغير ما أنزل الله، بل عليهم أن يدفعوا هذا الشر حتى لا تفسد الأرض ، وبهذا أمرهم الله سبحانه وتعالى واختبرهم به.

إن عقيدة التوحيد لا تمارس داخل القلوب، إنها حقا تستقر فى القلوب ولكن لابد أن يصدقها العمل، وإذا نحن لم نعلن راية التوحيد فما هى بالضبط الأمانة التى نحملها كمؤمنين. والله سبحانه وتعالى يأمرنا بإقامة دولة العدل والإيمان فلا معقب لحكمه:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨].

للبحث بقية قريبا إن شاء الله

* * *

الهوامش

(١) تفسير القرآن الكريم ـ الفاتحة والبقرة ـ أحمد حسين ـ الطبعة الثانية ـ المركز العربى الإسلامى للدراسات ـ القاهرة ١٩٩٢ ص١٦٢.

(٢) فى ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ الطبعة الشرعية السابعة عشرة ـ دار الشروق ـ القاهرة ١٩٩٠ ـ المجلد الأول ـ ص١١٢، ١١٣.

(٣) تفسير المنار ـ الشيخ محمد عبده ـ السيد محمد رشيد رضا ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٠ ـ الجزء الأول ص٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧.

(٤) تفسير الطبرى ـ المجلد الأول ـ الجزء الأول«٩» مجلة كتاب الشعب ـ دار الشعب ـ القاهرة ١٩٨٧ ص٥٦٥.

(٥) التفسير الواضح ـ الجزء الأول ـ محمد محمود حجازى ـ مطبعة دار الكتاب العربى ـ ١٩٥١ ـ القاهرة ص٥٥.

(٦) زهرة التفاسير ـ محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ الجزء الخامس ـ ص٣٩٦.

(٧) تفسير ابن كثير ـ الجزء الأول ـ دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ القاهرة ص١٦٧، ١٦٨.

(٨) تفسير القرطبى ـ المجلد الأول ـ الطبعة الثانية ـ دار الغد العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٩ ص٦٠٢.

(٩) راجع فى دراستى (الجهاد صناعة الأمة) مئات الآيات المتعلقة بالسلطة السياسية.

الجهاد صناعة الأمة ـ بحث فى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٣.

(١٠) محمد أبو زهرة ـ مرجع سابق ص٨٦٨.

(١١) تفسير ابن كثير ـ مرجع سابق ص٢٩٨.

(١٢) من الحديث النبوى الشريف الثانى فى الأربعين النووية ـ شرح الأربعين النووية ـ يحيى بن شرف الدين النووى. المكتبة التوفيقية ـ القاهرة ـ ص١٣.

(١٣) محمد أبو زهرة ـ مرجع سابق ص٨٨٣.

(١٤) أحمد حسين ـ مرجع سابق ص٣٤٨.

(١٥) القرطبى ـ مرجع سابق ص١١٥٧.

(١٦) ورد فى تفسير المنار ـ مرجع سابق ص٣٨١.

(١٧) المنار ـ مرجع سابق ص٣٨٩.

(١٨) محمد أبو زهرة ـ مرجع سابق ص٩٠٧ ـ ٩٠٨.

(١٩) مزيد من التفصيل حول آيتى التدافع فى دراسة الجهاد صناعة الأمة ـ مرجع سابق ص١٦٧ إلى ص ١٧٤.

كتب للمؤلف

١ ـ الجهاد صناعة الأمة. (الطبعة الثانية)

٢ـ أحكام القرآن الكريم فى موالاة الكفار والمشركين. (نفذ)

٣ـ فقه التغيير السياسى فى الإسلام. (الطبعة الثالثة)

٤ـ أزمة الخليج وحرب الأفغان.. بين أحكام القرآن وفتاوى السلطان. (الطبعة الثالثة)

٥ـ من كامب ديفيد إلى مدريد. (الطبعة الثانية)

٦ـ هموم الأمة مع نهاية القرن.

٧ـ مصر والسودان (التمرد ـ الحصار ـ الإنقاذ). (الطبعة الثانية)

٨ـ الإسلام والعروبة. (الطبعة الثانية)

٩ـ الخيانة .. الملف الأسود للزراعة فى مصر.

١٠ ـ أمريكا.. طاغوت العصر. (الطبعة الثانية)

اصدارات أخرى

١ ـ إيران.. الدولة الإسلامية ماذا تعنى؟ تأليف: عادل حسين.
٢ ـ الجبهة العربية ـ الإيرانية ضد الحلف الصهيونى الأمريكى تأليف: عادل حسين.
٣ ـ بلغنا حافة الحرب.. إسرائيل تحت الحصار والتهديد. تأليف: عادل حسين.
٤ ـ مؤتمر مدريد ومستقبل التسوية. تأليف: عادل حسين.
٥ ـ الخليج الأمريكى.. العربى سابقا. تأليف: عادل حسين.
٦ ـ فلسطين.. والحقائق القرآنية. تأليف: د. صلاح الخالدى.
٧ ـ الإسلام والمرأة. تأليف: أحمد حسين.
٨ ـ من أجل مصر.. أعارض بكل حرية. تأليف: د. محمد حلمى مراد
٩ ـ الحرب على هدى القرآن والسنة. تأليف: أحمد حسين.

عزيزى القارىء:

إذا أردت الحصول على أى من هذه الاصدارات، اتصل بـ:

ت: ٠١٢ / ٣٣٧٥٤٠٤

أو راسلنا على البريد الالكترونى:

Tarekalkarket@Hotmail.com

جميع حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ١٦١٩٤/ ٢٠٠٤

الإشراف الفنى

طارق الكركيت